أندري مارتيني و "الوظيفة السيميائية للغة"

الدكتور: بلقاسم ليباريير
قسم اللغة العربية و آدابها
كلية الآداب و العلوم الإنسانية
جامعة العقيد الحاج لخضر – باتنة.

بسم الله الرحمن الرحيم
و الصلاة و السلام على سيدنا محمد خاتم النبيين
أما بعد:
السيد المحترم رئيس اللجنة التنظيمية للملتقى بجامعة محمد خيضر – بسكرة
حضرات الأساتذة ... أبنائي الطلبة ... بناتي الطالبات ... سيداتي سادتي.

يسعدني أن أسهم في الملتقى الثالث حول السيمياء و النص الأدبي بهذه المداخلة المتواضعة شاكرا فضلكم. و أنقل إليكم جميعا تحية ود و تقدير من زملائكم أساتذة قسم اللغة العربية و آدابها بجامعة مدينة باتنة.

و إعترافا بالفضل للذين نظموا هذا الملتقى و سهروا على أعماله بهذه الجامعة العامرة جامعة مدينة بسكرة لكم مني تحية عطرة.

و موضوع مداخلتي:
أندري مارتيني و "الوظيفة السيميائية للغة"

مقدمة:

أود في البداية أن أعرض حديثي إليكم في جملة من العناصر، و هي كالتالي:
1/ منهج الدراسة و نبذة عن أندري مارتيني
2/ اللسانيات التزامنية و علم العلامات
3/ السمة الصوتية للغة "Caractère vocal du langage"
4/ مقاربة سيميائية بين ابن خلدون و مارتيني

5/ وجهة النظر الوظيفية و العلاماتية

1/ منهج الدراسة و نبذة عن أندري مارتيني:

يقوم منهج المداخلة على الوظيفة السيميائية للغة، و يبني على أسس التبدلات الصوتية التي كانت من اهتمامات أندري مارتيني Martinet, André (1908–1999) اللغوي الفرنسي و رئيس الوظيفية في فرنسا. وأحد تلاميذ أنطوان ماييه[1] Meillet, Antoine اللغوي الفرنسي (1866–1936) بباريس. تأثر مارتيني بأعمال حلقة "كوبنهاغن" ثم بمناهج الوصفيين و الوظيفيين بالمدرسة السلوكية الأمريكية (ليونارد بلومفيلد). وعمل أستاذا بجامعة "كولومبيا" من 1947–1955 و بـــ: (السوربون) 1956–1978 و أشهر أعماله مراجع و مقالات في علم الأصوات منها: (اقتصاد التبدلات الصوتية، 1955) وأيضا في (علم النحو مبادئ اللسانيات العامة، 1960) و في (علم النحو الوظيفي للغة، 1979) و في (علم النحو العام، 1985) [2].

و من الواضح أن "مارتيني" قد انتمى – بالفعل– إلى مدرسة (براغ، 1926). يقول جيفري سامبسون Geoffrey Sampson في كتابه (Schools of Linguistics) في الفصل الثالث، الموسوم: "علم اللغة الوظيفي: مدرسة براغ" ما نصه:

> "إن مارتنيه (ذلك الشخص غير العادي الرائع في تذوقه للاتجاهات المختلفة في الفكر اللغوي) قد تأثر بشكل كبير بالتفكير البراغي، في مرحلة مبكرة من حياته. ويبدو من الإنصاف أن نجعله أو نعده زعيم المؤيدين المعاصرين للخط الرئيسي لأفكار مدرسة براغ"[3]

لقد تذوق مارتيني هذا الزخم المعرفي السيميائي في متلف منابعه الوظيفية السيميائية. وغدا نهجه الوظيفي السيميائي واضحا في مؤلفاته التي بين أيدينا.

2/ اللسانيات التزامنية و علم العلامات:

إننا نجـــد مارتيني قد اهتم بالسمـــات أو العلامـــات. ففي الفصـــل الأول من كتابـــه:(اللسانيات التزامنية) مـــن خـــلال: "التلفـــظ المزدوج للغـــــة[*] LA

DOUBLE ARTICULATION DU LANGUE"، من حيث طبيعة اللغة الإنسانية و تميزها. يقول أندري مارتيني:

"إن اللغة بوصفها نظاما من العلامات تزخر بإشارات تكون صورة الحصان في الذهن وعلاقته الفيزيائية بالصوت و الدلالة. وفضلا عن ذلك فإن اللغويين قد درسوا منذ وقت مبكر طبيعة اللغة الإنسانية وخصائصها كما أدركوا أن اشتقاقها و تطورها قد يرجع إلى لغة أخرى قديمة تتميز بأنماطها المختلفة. كما اعتنى علماء النفس بالخطوط المشتركة بين تلك اللغات وبذلك التفتوا إلى العلامة عند سماع اللفظة في أثناء الخطاب"[4]

3/ السمة الصوتية للغة "Caractère vocal du langage"

حاول أندري مارتيني (1908-1999) أن يعرض في كتابه: "مبادئ اللسانيات العامة"[5] اللسانيات و اللسان، و الكلام "la linguistique" و "la langue" و "le language". و هو يرى في هذا النص الأول. أن هذه المبادئ الرئيسية لها أثرها العميق في بناء نظريته اللسانية. يقول: "إن اللغة التي يدرسها اللساني هي لغة الإنسان". و نستطيع أن نمتنع عن تحديدها، لأن الوظائف الأخرى التي تنجم عن الكلام أو اللغة "langage" تكاد تكون استعارية "métaphoriques". "فلغة الحيوان" غدت من إبتكار الأسطوريين est une invention des fabulistes. فلغة النمل langage des fourmis تمثل بالأحرى فرضية "une hypothèse" أكثر مما تقدم مسلمات للملاحظة[6]

و يقول أندري مارتيني في السياق ذاته(إن لغة الأزهار) ذات شيفرة كبقية الشيفرات، وبعبارة أخرى إنها لغة ذات قانون كغيره من القوانين الأخرى. ففي الكلام المألوف تشير اللغة بدقة إلى خاصية الناس للسماع بواسطة علامات صوتية، تلك السمة الصوتية للغة التي نعتز بها عندما نتوقف أمام البلاد المتحضرة منذ آلاف السنين.[7]

فكثيرا ما استعملنا إشارات التصوير أوالرسم أو النقوش الملائمة للعلامات الصوتية الملائمة. وحتى ما يمكن أن نطلق عليه الكتابة لغاية اختراع الفونوغراف " phonographe". و كل علامة صوتية تعبر عن (أرسل، بعث) تدلي بإدراك مباشرة

من ضياع لفرصة. و على النقيض من ذلك إن علامة مكتوبة تصمد طويلا، و بعبارة أخرى تدوم أكثر من دعامتها "support": الحجر، أو الرق (جلد رقيق يكتب فيه)[8] (parchemin) أو الورق، و الآثار المتبقية على هذا السند بوساطة الإزميل و القلم أو الريشة[9]. وسوف نسوق حكاية قصها هذا الباحث عن إحدى ابنتيه يقول:

"و قد تعلمت إحدى ابنتي –المولودة في أمريكا– الفرنسية و الإنكليزية في آن معا تقريبا، و لكن في ظروف مختلفة لحد ما: كانت تتكلم الإنكليزية مع حاضنتها، و من ثم مع رفاقها في حدائق الأطفال. و لم تكن تتحادث بالفرنسية إلا مع والديها. و عليه ففي حوالي سنتها الرابعة، كانت فرنسيتها راشدة و إنكليزيتها صبيانية. ينبغي أخيرا أن نناضل ضد الفكرة الذائعة الشيوع التي مفادها أن ليس بمقدورنا أن نؤلف نتاجا أدبيا إلا في اللسان الذي تعلمناه خلال نعومة أظفارنا"[10]

4/ مقاربة سيميائية بين ابن خلدون و مارتيني:

تحدث أبن خلدون (808 م) عن الملكة اللسانية بوصفها الأداة الحية في نقل الفكر و تعليم اللغة. يقول:

"أعلم أن اللغة في المتعارف عليه هي عبارة المتكلم عن مقصوده، و تلك العبارة فعل لساني [ناشئة عن القصد لإفادة الكلام] فلا بد أن تصير ملكة متقررة في العضو الفاعل لها و هو اللسان. و هو في كل أمة بحسب إصطلاحاتهم"[11]

و يشير أندري مارتيني بأن هذه اللغة – بالتأكيد – لا تتجلى إلا بالخطاب، و لا تحقق وجودها إلا به[12] " cette langue, certes, ne manifeste son existence que par le discours". و ذلك إن نحن آثرناه من خلال "الفعل الإنساني" الذي ساقه ابن خلدون و اختاره مارتيني بعبارته "les actes de parole"

غير أن الخطاب و الأفعال اللسانية لم تكن هي اللغة. و عليه فالتقابل أو التضاد 'l'opposition' المألوف بين اللغة و الكلام يمكن أن نتبينه من خلال مصطلحي قانون أو شيفرة "code" و رسالة "message". فالشيفرة تكون التنظيم الذي يساعد على تأليف الرسالة أو كتابتها. و على أي شيء نقابل كل عنصر في رسالة ما لتخليص المعنى[13].

و يمكننا أن نلحظ هذا التميز المفيد جدا بين اللغة و الكلام يمكن أن ينتج عنه الإعتقاد بأن الكلام يحظى بتنظيم مستقل إذا ما قورن باللغة، بأي شكل كان يمكن أن نعول عليه. فعلى سبيل المثال نتأمل وجود لسانيات الكلام تجاه لسانيات اللغة" و يبدو "توقف التحليل اللساني بنفسه خلال زمن طويل عند الجملة. فقد كانت هذه مصممة بوصفها إطارا للإدماج الإجمالي لكل الوحدات الملائمة لسانيا من غير إهتمام بالمستويات المحتملة للتنظيم العالي. و حتى الجملة بالنسبة إلى سوسير على كل حال – باستثناء حال الجملة المصطنعة– فإنها لا تعد جزءا من لسانيات اللغة، و لكن من لسانيت الكلام"[14]

5/ وجهة النظر الوظيفية و العلاماتية:

استخدم مارتيني الوظيفة لكونها مصطلحا رئيسا لدى مدرسة براغ فقد "ينظر لغويو مدرسة براغ من الناحية الأخرى إلى اللغات كما ينظر أي شخص إلى آلة باحثا عن فهم الوظائف التي تؤديها مختلف الأجزاء أو مكوناتها العاملة و كيف تؤثر طبيعة كل جزء على طبيعة و عمل الأجزاء الأخر. كلما وصف لغويو مدرسة براغ بنية اللغة، فإن طريقتهم و منهجهم لا يختلف كثيرا عن منهج معاصريهم. لقد حاولوا أن يستمروا في الوصف من أجل التفسير غير قائلين أي شيء تشبه اللغات ؟ و لكن، لماذا سارت بهذا الطريق ؟ لقد ألزم اللغويون الأمريكيون أنفسهم (و ظلوا ملتزمين) بالمنهج الوصفي"[15]

و يعد المنهج الوصفي من المناهج التي آثرها أهل اللسان في هذا المجال و لا سيما عند إرتباطها بالرؤية الوظيفية السيميائية للغة. يقول مارتيني، بهذا الصدد:

'إن مفردات "وظيفة"، "وظيفي"، "وظيفية" يمكنها أن تفيد الألسنيين ليوضحوا اتساع الميدان الذي بمقدور تعدد الدلالات أن يغطيه بالنسبة إلى مصطلح ما. و هذا صحيح لجهة استخدامهم العام. ثمة فرق كبير بين وظيفة التطبيق اللغوي، و حتى في ذلك الذي

للوظائفيين أنفسهم، بين الوظيفة بالمعنى الأعم للمفردة، و بين وظيفة الوحدات التمييزية في سياق ما، بوصفها متميزة عما يمكن أن نشير إليه على أنه طبيعتها.

.. عندما ندع حقل الوحدات التمييزية (مونيمات، نغمات، موضع النبر) كي نقارب حقل الوحدات البليغة، علينا أن لا ننسى أن ما يهم من الآن فصاعدا يتمثل بالطريقة التي ستبقى فيها هذه الوحدات متميزة بعضها عن بعض أكثر منه في فرديتها و هويتها على الصعيد الدلالي. و بعبارات سوسيرية، فإن ما يعتبر في التحليل الأخير، ليس الدال، بل المدلول. ينبغي إذا أن نتحرر من مفهوم الرمز الذي بموجبه يوضع الدال و المدلول على الصعيد نفسه، و أن نذكر ببداهة ما: تلك التي تقضي بأن الدال ماثل هنا كي يجلي المدلول، و أن المدلول غاية و ليس وسيلة.و ليس مستعصيا أن ندرك لماذا لم يقدم سوسير مطلقا الرمز في هذه المصطلحات. لقد كان في الواقع، أسير ثنائيته (لسان – كلام). فالقول إن الدال يجلي المدلول، هو إنما تصوره على صعيد الكلام.إنه العدول عن التعريف العقلي للرمز الذي يعتبر الدال بموجبه صورة صوتية.إنه تدمير للرمز بما هو وحدة أساسية للسان، و بما هو حقيقة متميزة عن التجلي المحسوس لهذا اللسان: الكلام."[16]

الخاتمة:

بعد هذا كله حاولت أن أسوق تلك النصوص من مظانها بغية الوصول إلى مفاتيح السيميائية عند ابن خلدون و آندري مارتيني أدرجتها في هذه العجالة المقتضبة و هي عبارة عن إشارات قد تضيء درب الباحثين اللسانيين و السيميائيين و الأدباء و النقاد. أحببت أن أسوقها وفق نص من التراث و نصوص أخرى من مجموعة مؤلفات مارتيني. و الله من وراء القصد.

الهوامش و المراجع:

(1): Petit Larousse Illustré. Librairie Larousse, Paris 1983, p 1515.
(2): "Martinet, André." Encyclopédie® Microsoft® Encarta 2001. © 1993-2000 Microsoft Corporation.
(3): المدارس اللغوية: التطور والصراع، ترجمة الدكتور أحمد نعيم الكراعين، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، (الطبعة الأولى)، 1993، ص117.

(4): La LINGUISTIQUE SYNCHRONIQUE. Etudes et recherches, collection SUP, PRESSES UNIVERSITAIRES DE FRANCE, Paris, (deuxième édition), 1968, p.2.

(*)- انظر: الدكتور ميشال زكريا، الألسنية (علم اللغة الحديث)، المبادئ و الأعلام، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع، بيروت، (الطبعة الثانية)، 1983، ص286.

(5): Andre Martinet, Elements De Linguistique Generale, Armand Colin, Paris (Nouvelle Edition), 1980, P.7

(6): المرجع نفسه، ص7.

(7): المرجع نفسه، ص7.

(8): المعجم الوسيط – مجمع اللغة العربية، مطابع دار المعارف بمصر، القاهرة، (الطبعة الثانية)، 1972، ج1، ص466 (رق).

(9): ANDRE MARTINET, ELEMENTS DE LINGUISTIQUE GENERALE, p.7

(10): أندريه مارتينيه، وظيفة الألسن و ديناميتها، ترجمة نادر سراج، دار المنتخب العربي للدراسات و النشر و التوزيع، بيروت (الطبعة الأولى) 1996، ص 158-159.

(11): مقدمة ابن خلدون- تحقيق الدكتور علي عبد الواحد وافي، مطبعة الرسالة، القاهرة (الطبعة الثانية) 1968، ج4، ص1374.

(12): André Martinet, Elements De Linguistique Générale, P.25

(13): المرجع نفسه، ص 25.

(14): العلاماتية و علم النص (نصوص مترجمة)، إعداد و ترجمة منذر عياشي، تقديم الدكتور عبد القادر فيدوح، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء- المغرب، بيروت- لبنان، (الطبعة الأولى) 2004، ص120.

(15): المدارس اللغوية، التطور و الصراع، ص107.

(16): وظيفة الألسن و ديناميتها، ص 96-98.